كلمة الدكتور مازن المبارك عضو المجمع

في الاحتفال بمرور تسعين عاما

على تأسيس المجمع (٢٠٠٩/٦/٣٠م)

مجمع اللغة العربية بدمشق

نشأته وسيرته

قصة مجمع دمشق قصة مسيرة ثقافية بلغت اليوم من عمرها تسعين سنة. ونحن حين نؤرخ لمجمعنا إنما نؤرخ في الحقيقة لمسيرتنا الثقافية؛ لأن الحديث عن المجمع تأريخ لنا ولثقافة دمشق، لا لسنة واحدة ثامنة بعد الألفين أو تاسعة، ولكنها لثقافة دمشق الخالدة. وما عرفت عملاً ثقافيا في اللغة والأدب يمثل ثقافة أمتنا إلى اليوم كعمل مجمع دمشق، الذي كسا البلاد والعباد ثوب العروبة الناصع، ونزع عنها ثوب التتريك المفروض على الألسنة والأقلام، وبعث في أبناء الشعب وعيا لغويا استجابوا معه لدعوة التعريب وسماع المحاضرات وإحياء التراث، واستبدال العربي بكل ما هو أجنبي دخيل.

لقد بدأت المسيرة بقرار من أول حاكم عربي في العهد الفيصلي صدر في

الثامن من حزيران سنة ١٩١٩م. وإن من حق أولئك الرجال الذين عربوا في عصرهم ما لم نستطع نحن أن نعربه في عصرنا، أن نقف قليلاً عند إنجازاتهم لنرى العزيمة والإرادة والسرعة في التنفيذ:

في ١٩١٨/١٠/١ دخل الأمير فيصل مدينة دمشق.

وفي ١٩١٨/١٠/٥ شكلت الحكومة العربية.

وفي ١٩١٨/١١/٢٨ أُنشئت الشعب واللجان وكان منها شعبة الترجمة والتأليف ولجنة المعارف.

وفي ١٩١٩/٢/١٢ دمجت شعبة الترجمة والتأليف في لجنة المعارف، وجعلتا ديوانا واحدا حمل اسم ديوان المعارف، وأُسندت رئاسته إلى الأستاذ محمد كرد علي.

وفي ١٩١٩/٦/٨ سمي ديوان المعارف «المجمع العلمي» واستقل عن شعبة المعارف ومهامها، وتولى الأستاذ كرد علي رئاسته.

وفي ١٩١٩/٧/٣٠ عقد المجمع العلمي جلسته الأولى في العادلية.

و«العادلية» مدرسة قديمة في حي دمشقي حمل اسم الباب الغربي للجامع الأموي فعرف بـ «باب البريد»[1]، وكان نور الدين زنكي بدأ بإقامة بنائها ولكنه قضى رحمه الله قبل تمامها، فجاء الملك العادل وأعاد بناءها مجددا، وهي اليوم تضم ضريحه، وكانت من أكبر مدارس دمشق وأشهرها، وقد أكل جيرانها من جوانبها فصغرت واستقرت على ما هي عليه اليوم.

ولقد كثرت المدارس في دمشق وازداد عددها لأن أصحاب المذاهب الفقهية

(١): هو المعروف اليوم بباب المسكية.

اتخذوها دورا لقَضائهم وقُضاتهم ومدارس لفقهائهم؛ فكان لكل مذهب جملة من المدارس في أحياء المدينة. وكانت المدرسة العادلية أشهر مدارس الشافعية، أقام فيها قاضي قضاتهم، كما اتخذوا المدرسة الظاهرية المقابلة لها والتي فيها قبر الظاهر بيبرس مكانا لنواب القاضي.

وكانت العادلية حين صدر قرار إنشاء المجمع مسكنا لمفتي دمشق، وهي مجاورة لبيته، ولم يرق للأستاذ كرد علي رئيس المجمع أن يبقى في دار الحكومة حيث ديوان المعارف، فبحث عن مكان مناسب فاهتدى إلى المدرسة العادلية، فاستأذن الحاكم فوافق على إخراج ساكنها واتخاذها مركزا للمجمع، واستطاع الكرد علي أن يخرج ساكنها وأن يرممها ويصلحها وأن يفرشها حتى أصبحت بعد ستة أسابيع صالحة لاستقبال المجمعيين الذين اختارهم، فعقدوا فيها جلستهم الأولى يوم الأربعاء في ٣ ذي القعدة ١٣٣٧هـ الموافق ٣٠ تموز سنة ١٩١٩م، وهو تاريخ انتساب الدفعة الأولى من أعضاء المجمع، والذين بلغ عددهم مع الأستاذ كرد علي اثني عشر عضوا.

لقد تساءلت عن السبب في اختيار العادلية مركزا للمجمع، ولماذا اختارها الأستاذ كرد علي من بين المدارس الكثيرة المنتشرة في دمشق؟

أيها السادة:

اسمحوا لي أن أمزج حديث التاريخ بآمال ربما راودت من اختار تلك المدرسة لإقامة المجمع، وربما كانت وحيا من آمالي أنا وتطلعاتي نحو المجمع ورسالته، أعلل بها قيام المجمع في تلك المدرسة من ذلك الحي الدمشقي القديم.

هل المصادفة وحدها هي التي جعلت الأستاذ كرد علي يختار العادلية مكانا للمجمع؟ إذا كان ذلك كذلك فإن المصادفة إذا رافقها الذكاء في الاجتهاد والحكمة في التقدير والإخلاص في النية، فحري بها أن تكون ضربا من الإلهام الموفق.

أولاً: المدرسة العادلية بمعنى من معانيها الثقافية تمثل مدرسة لها في تاريخنا الثقافي والعلمي والتعليمي ذكر لا تنساه دمشق؛ ففيها كان علماء الأمة وأئمتها يقيمون ويتتابعون على التدريس والتأليف ونشر العلم؛ فيها أقام أبو شامة صاحب كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين»، ومؤلف عشرات الكتب النفيسة التي تركها وقفًا على خزانة العادلية، وفيها سكن ابن خلكان قاضي القضاة، وفيها ألف كتاب «وفَيات الأعيان»، وفيها درس الإمامان الشافعيان تقي الدين السبكي قاضي الشام وشيخ الإسلام في عصره، وبهاء الدين السبكي، وفيها نزل ابن مالك صاحب الألفية ودرس، أفليس حريا بهذه المدرسة التي أقام فيها أولئك الأئمة الأعلام وأمثالهُم، فدرسوا فيها وألفوا فيها ونشروا منها علومهم، أن تكون سيرتها من بعدهم استمرارا لرسالتهم في نشر العلم والثقافة وإحياء التراث؟! وقد أشار الأستاذ كرد علي مرة إلى هذا المعنى فقال: إن العادلية أُنشئت لرعاية اللغة العربية والعلوم الإسلامية، والحمد لله الذي قضت إرادته أن تعود مكانا لعلمٍ ينشر وأدبٍ يذكر بعدما ساد فيها من كساد.

ثانيا: إن المجمع في باب البريد من دمشق القديمة يمثل بمعنى من معانيه الجغرافية، أي من معاني موقعه ما يوحي به باب البريد من انطلاق الرسالة الثقافية والحضارية التي يراد للمجمع أن يؤديها وأن يطلقها، من الموقع الذي كان ينطلق منه بريد الدولة الأموية إلى أصقاع عمالها في العالم؛ فمن باب البريد كانت تنطلق رسل معاوية وعبد الملك ومروان وهشام إلى عمال الدولة حيثما كانوا، كذلك يراد لرسالة المجمع أن تنطلق إشعاع حياة وتواصل ثقافة، فلم يكد يمضي على تأسيس المجمع شهران حتى كانت رسائل رئيسه تنطلق إلى المجامع الغربية وإلى علماء العالم في الشرق والغرب تحدثهم عن قيام المجمع وتوضح لهم رسالته.

ثالثًا: وأما الموافقة الأخرى التي أراها في اختيار العادلية مكانا للمجمع فهي أن رسالة الخير، رسالة العلم والثقافة، رسالةَ الحضارة العربية الإسلامية التي كانت العادلية تنشرها، والتي قام المجمع ليتابع مسيرتها، رسالةٌ لا بد لها من ظَهر يعينها أو قوة تحميها، فإن لم يكن من الأحياء فَلْتستلهمه ممن مضى رسمه وجسمه، وبقي حيا على الدهر ذكره واسمه؛ فضريح صلاح الدين الأيوبي قاهر الإفرنج الملاصق للجامع الأموي من جهة، وضريح الظاهر بيبرس قاهر التتر في الظاهرية تجاه العادلية من جهة ثانية، وضريح الشهيد نور الدين محمود زنكي الذي شاد الأساس الأول للعادلية على بعد أمتار من العادلية في سوق الخياطين، وكل من أولئك القادة رمز للنصر على أعداء الأمة وحماية أرضها ورسالتها.

إن العادلية قامت على إرث علماء الأمة الذين عاشوا فيها ودرسوا وألفوا، وفي باب البريد حيث كان ينطلق البريد من عاصمة الدولة، وبين ظهراني أولئك القادة العظام. إن العادلية في موقعها الجغرافي تمثل كل تلك المعاني وتستمد منها قيم العمل والفداء والإخلاص والعطاء.

أيها السادة:

لست أكتمكم أنني الآن في هذه القاعة الجميلة الجديدة وفي هذا المبنى الجديد في هذا الحي الجديد لا أشعر نحو هذه الجدة والحداثة بما كنت ومازلت أشعر به وأنا على عتبة المجمع في المدرسة العادلية القديمة في باب البريد! يقولون إن الألفة تذهب الغربة، ولا والله مازال الشعور الذي لا يوصف من الهيبة والجلال الذي كنت أشعر به وأنا صغير ثم شاب عند باب المجمع في باب البريد، والذي مازلت أشعر به حتى الآن... مازال يعتريني وكأنني واقف في محراب التاريخ أو كأنني اخترقت الزمان وعدت إلى الماضي بل عدت نقطةً صغيرةً في أعماق التاريخ.

إن أحجار العادلية تلك الكبيرة الخشنة تحمل إلي رائحةً من أريج الماضي تاريخًا وتراثًا ومجدا حتى لكأني أتقرى ذلك بيدي. إني أسمع كل حجر من تلك الحجارة الضخمة السمراء يقول لي: قف أحدثْك من أنا؟ ومن وضعني هنا؟ ومن مر بي هنا؟ وما مر من الأحداث هنا؟ لتعرف من أنا ومن أنت؟

أيها السادة:

أعود بكم الآن من **(المجمع العلمي العربي)** في باب البريد بعد انقضاء تسعين سنة على ولادته لأقف معكم في (مجمع **اللغة العربية)** بحي المالكي في دمشق الجديدة. أعود لأذكركم بالمراحل التي قطعها في مسيرته:

المرحلة الأولى: تبدأ حين أُسس المجمع في ١٩١٩/٦/٨م.

- لم يكن للمجمع في تلك المرحلة نظام أو قانون يسير عليه.

- وكانت أغراضه تتناول: اللغة العربية إحياءً وتدريسا وترجمة وتأليفًا ونشرا ومصطلحا، والمسؤولية عن المكتبة الظاهرية، وعن الآثار جمعا ورعاية، وإصدار مجلة؛ صدر العدد الأول منها في ١٩٢١/١/١م، ومازالت تصدر إلى اليوم.

- أما أعضاؤه فكانوا اثني عشر عضوا، منهم ستة أعضاء يؤَلفون مع الرئيس (اللجنةَ الإدارية)، ولها أمين سر يكتب محاضر الجلسات، ويطلقون على هؤلاء الأعضاء اسم الموظفين حينا والملازمين حينا آخر، والعاملين في أحيان أخرى. وأما بقية الأعضاء فهم الشرفيون، وهم من العلماء المقيمين في دمشق.

تجتمع اللجنة الإدارية يوميا، وأما الآخرون فيحضرون جلسة المجمع الأسبوعية ويشاركون زملاءهم في أعمال المجمع ولجانه ماعدا الأمور الإدارية والمالية.

واستمرت هذه المرحلة حتى سنة ١٩٢٢م.

وفي سنة ١٩٢٣م بدأت مرحلة جديدة حين عزمت الحكومة على افتتاح **مدرسة الآداب العليا**، وضمها إلى معهد الطب ومعهد الحقوق تحت اسم الجامعة السورية، ورأت أن يكون المجمع أيضا تابعا للجامعة ومن إداراتها، وصدر ذلك بصك رسمي في حزيران سنة ١٩٢٣م، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، لأن المجمع وجه مذكرة إلى الحكومة طلب فيها فصل المجمع عن الجامعة واستجيب طلبه وتم فصله عن الجامعة في آذار سنة ١٩٢٦م وعد هيئة مستقلة تتمتع بالاستقلال الإداري والمالي.

وفي هذه المرحلة أُلغيت تابعية الآثار وجمعها للمجمع وكلف الإشراف عليها علميا... ثم صدر في عام ١٩٢٨م أول نظام للمجمع، أصبح مرتبطًا بمقتضاه بوزارة المعارف.

وأُجيز له أن يفتتح فرعا للمجمع في حلب.

وحدد عدد أعضائه بعشرين.

واستمر المجمع في مسيرته بعد عام ١٩٢٩م نشيطًا في نشر الوعي اللغوي والثقافي وإلقاء المحاضرات حتى صدر في ١٢ آب ١٩٤٣م مرسوم جمهوري يعرف المجمع، ويشرح أغراضه وعمله، ويضع له نظاما داخليا يبين طريقة انتخاب رئيسه وأعضائه ومهامهم وينظم عقد الجلسات وتأليف اللجان.

وقد ألغى هذا المرسوم صلة المجمع بالآثار، واشترط إقامة أعضائه في دمشق مما ألغى فرع حلب، وأبرز ضرورة اهتمام المجمع بوضع المصطلحات وتوحيدها في الأقطار العربية.

وحدث في عام ١٩٥٣م أن توفي رئيس المجمع ومؤسسه الأستاذ محمد كرد علي، فانتخب الأستاذ الشاعر خليل مردم بك خلفًا له في رئاسة المجمع.

وبعد قيام الوحدة بين مصر وسورية دخل المجمع مرحلة جديدة تغير فيها اسمه فأصبح «**مجمع اللغة العربية**» وقام اتحاد المجامع اللغوية فأصبح مجمع دمشق عضوا فيه. وقامت جهات رسمية حكومية أخرى بمشاركة المجمع في كثير من أنشطته..كالكليات والمعاهد الطبية والعلمية التي شاركت في التعريب ووضع المصطلحات، وكوزارة الثقافة التي تولت المسؤولية عن الآثار وعن المحاضرات في المراكز الثقافية المنتشرة في أحياء المدينة، وسمح للمجمع أن يستعين بالخبراء من غير المجمعيين.

وبدأت المرحلة الأخيرة بعد عام ٢٠٠٠م.

وهي تمثل السنوات الأخيرة من مسيرته، وهي سنوات نعم فيها المجمع برعاية القيادة السياسية واهتمامها برسالته؛ إذ أصدر الرئيس بشار الأسد مرسوما في ٢٠٠١/٥/٢٩م حدد فيه أغراض المجمع المتصلة باللغة والتراث والتاريخ محافَظةً عليها وعنايةً بدراستها ووضعا لمصطلحاتها ووقوفًا في وجه العامية وحدا من انتشارها.

وسمح هذا المرسوم للمجمع أن يستعين بالفنيين والخبراء من الجامعيين، وحدد عدد أعضاء المجمع بخمسة وعشرين، وجعله مرتبطًا بوزير التعليم العالي.

ثم أصدر الرئيس الأسد مرسوما ثانيا في ٢٠٠٨/٩/١١م جعل المجمع **المرجعَ الأعلى للغة العربية** في القطر، وصنف أعضاءه عاملين أو فخريين أو أعضاء شرف أو مراسلين، وألغى عنهم شرط الإقامة في دمشق، وترك للمجمع حرية تأليف اللجان، ونظم مواعيد إقامة المؤتمرات السنوية.

تلك - أيها السادة - كانت لمحةً موجزةً إلى مسيرة المجمع وأبرزِ ما طرأ عليه فيها من تغير أو تطور، ولعلنا لو ألقينا نظرة عامة أفقية تشمل الماضي والحاضر معا

لقلنا إن المجمع قديما كان يهتم بالجوهر، وهو اليوم في عصر الحداثة يهتم بل يمثل عصره عنايةً بالجوهر والمظهر! كان المجمع القديم على قلة ما بين يديه من إمكانات مادية وانعدامٍ للتقنيات الحديثة يسابق الزمن ليحقق الغايات، ويقطع المسافات زمانا ومكانا في الداخل والخارج، والمجمع اليوم أتاحت له التقنيات المعاصرة ما لم تتحه للقدماء الذين كانوا يكتبون كل شيء بأيديهم، فلا آلة كاتبة ولا حاسوب ولا وسيلة اتصال، عندهم موظف أو اثنان ومراسل واحد، ومع ذلك فقد قدموا ما قدموه، وأنتجوا ما أنتجوه، وسمع العالم أصواتهم. ولكن الحياة المعاصرة غيرت أساليب العمل من ناحية ثانية، وعقدت سلسلة الرتابة (الروتين) وزادتها طولاً، ولم تجعلنا المعاصرةُ بتقنياتها أكثر سرعة في كل شيء! وإليكم مثالاً واحدا عرفته من أمثلة كثيرة تصور سرعة التنفيذ وحكمة التصرف عند الأستاذ كرد علي. وهو من لا أعرف مثله في النشاط وسرعة الاستجابة؛ إنه لا يكاد يفكر في الأمر ويستقر على الرأي حتى يمضيه دون تأجيل! إنه يصدق عليه قول المتنبي:

إذا كان ما ينويه فعلاً مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

في إحدى جلسات المجمع طلب إلى اثنين من أعضائه (هما المغربي والتنوخي) أن يكون دوامهما من غدهما في ديوان المعارف، فاستمهلاه حتى يصدر قرار الحاكم، فتناول ورقة وكتب عليها: «بناءً على الطلب الشفهي من الحاكم العام يندب فلان وفلان إلى الديوان» وقال لهما: هذا القرار من طرفنا وحين يرونكم غدا عندهم يصدرون القرار من طرفهم. لقد تم الندب أو النقل بساعة وهو أمر يحتاج مثلُه عندنا اليوم إلى أسابيع!

ألم يكفكم أن رئيس المجمع استطاع في ستة أسابيع أن يخلي العادلية من

ساكنيها وأن يرممها ويفرشها وينجز كل ما تتطلبه لتصبح مكانا صالحًا للمجمع ومتطلباته؟!

وبعد، إن المجمع اليوم على عتبة عصر جديد يأمل فيه ازديادا في نشاطه وتوسعا في عمله ولجانه، ورقيا بوسائل تحقيق أغراضه حتى يبلغ المستوى المرجو في ظل العون الرسمي من القيادة السياسية التي حملت رسالته اللغوية فجعلتها إحدى قضايا الأمة العربية في مؤتمرات القمة، وإنا لنرجو أن تلقى لغتنا، وهي تاج قوميتنا، من القيادات العربية كلها ما تستحقه، لتكون رمزا صادقًا لوحدة هذه الأمة وعنوانا لهويتها.

أيها الزملاء المجمعيون:

لقد احتفلتم اليوم بمعاصرتكم السنة التسعين من عمر مجمعكم، وإني لأرجو من يعاصر منكم بلوغ المجمع المئة من عمره - بارك الله في أعماركم - أن يحتفلوا به الاحتفال اللائق بمسيرة قرن من البناء اللغوي والعطاء الثقافي.